المنقطعة النظير اكبار العارف بقدرها المستصغر لكل تضحية في سبيل اكرامها بما هو حقها . ثم اخذ يعدد مناقب تلك الزاهلة التي كانت فريدة عصرها بتقواها ومروءتها واحسانها وعطفها على الفقراء واشتغالها الذي لم ينقطع يوماً واحداً ولا ساعة واحدة بتخفيف آلام المصابين وشفاء المرضى وتربية البنات والبنين من الفقراء وتعليمهم ومساعدة المشاغل والملاجيء والمدارس الطائفية والاجنبية والاهتمام باصلاح حال الكنائس وحضور المجتمعات التي يكون فيها خير الامة في مجموعها او لبعض طوائفها المستضعفة فكانت فضائلها وماثرها تتعدد تعدد ساعات حياتها. ففقد تلك العقيلة الفاضلة النبيلة الكاملة انما هو مصاب لم يخص آل صيدناوي بل شمل الامة باسرها . وحسبها قرباً من الله ورضواناً عنده انها في بضع السنوات الاخيرة من حياتها عانت من آلام العلة التي افضت الى موتها اشد ما يعانيه انسان صبور فكان تجلدها لأمر ربها وقبولها المحنة النازلة من لدنه واهتمامها في كل لحظة صادفتها فيها الاوجاع باعمالها الخيرية المتعددة كان كل ذلك نوعاً من الشهادة التي جعلت لها في جنان الخلد مكاناً عليا وانزلتها من نعمة الكريم الذي ابتلاها منزلاً مرضياً

ثم اخذ الشاعر يتلو بصوت حزين وقلب باك مرثية صور بها الفقيدة اصدق تصوير . وهذا نصها :

مرثية مطران

عادت الى منزلها في العلى ... تأبى الثريا في الثرى منزلا
انسية من ملكات الندى ... كانت مثال الرحمة الامثلا
اخلاقها من شاء تعدادها ... عد المروءات بها اولا
آدابها كالنسمات التي ... تحيي وتهدي عبقاً مشملا
ألفاظها كالدر او دونها ... مواقع الدر اذا سلسلا
تقول ما يحسن لا غيره ... تعمل ما يجمل ان يعملا
أن حدثت اروت ظماء النهى ... من منهل يا طيبه منهلا

ان رتلت لله انشودة حسبت جبريل الذي رتلا
ان بسطت للبذل كفاً فقد رأيت ثم المعجب المذهلا
انملة من فضة فجرت عن برق نور فجرت جدولا
ما كان اهداها فؤاداً الى مصلحة الناس وما اميلا
لم تلتمس يوماً لها شهرة كلا ولم تهمم بان تفعلا
برغمها ان نوهوا باسمها ورجعوا اصداءه في الملا
لكنها تؤثر في برهـا أدومه نفعاً او الاشملا
انظر الى الصرح الذي شيدت للعلم قد اوشك ان يكملا
احوج ما كنا الى مثله يصلحنا حالا ومستقبلا
وخير ما تبني يدا مسعد بيت يقي الامة ان تجهلا

* * *

ما كان للبر بهـا مأمل الا أتت ما جاوز المأملا
فكيف لم يرفق عليها الضنى حتى تمنت لو شفاها البلى
عانت من الاسقام ما لم يكن من قبل عاناه امرؤ مبتلى
لكن حب الأم ابناءها بها الى اسمى ذراه علا
هوى وناهيك به من هوى كان لها عن نفسها مشغلا
حملها من ثقل العيش في تجلد ما عز أن يحملا
بلفظة او لحظة منهم تقبل ما مر كما لو حلا
ولو فداهم ما بها ارخصت دونهم من عيشها ما غلا

* * *

ألم يكن اوحدها منتهى امنية الناجل ان ينجلا
فتى على زيغ الصبى لم يكد ينهج الا المنهج الاعدلا
في حلبة الفخر جرى سابقـاً الا اذا جارى اباه تلا
اما ابتناهـا استطاعتا رحمة تحقيق امر قبل ما خيلا
صالحتا والعيش من عقه بؤساً فحل الود حيث القـلى

ثلاثة كلهم ان دجت سماء فضل طالع يجتلى
يندر ان ينجب امثالهم من ادرك المجد ومن اثلا
انى لقلب الام سلوانهم سلوا صدى القبر يجب ماسلا

***

واحربا للكوكب المزدهى بمثل انوارك ان يأفلا
هل كنت اذ عشت بلا ريبة في الناس الا ملكا مرسلا
او روح قدس حل دار الاسى متخذاً من ترابها هيكلا
فانت لو مثلك الحس في اصفى وفي اخلص ما يثلا
طيف سماوي له حلة من زينة الضوء وقد حللا
يشف عن قلب كليم به امضت يد قاسية منصلا
فالدم سفوك ومن حوله اشعة تعطيه زهو الحلى
ما اهزا الدنيا اذا البست اخبث جرح ثوبها الاجملا

***

يا آية في زمن لم يجد بامرأة اذكى ولا افضلا
ظلمت في دنياك فانحي وفي عدن تلقي عوضاً اعدلا
تيممي شطر سليم فقد آن لعقد بت ان يوصلا
وحان ان يشفى المحبان من شوق به قلباهما اشعلا
قولي له انا على عهده كان عهداً خالياً ما خلا
وان ذكراه — وزيدت بما جددت ان تنسى ولن تخملا
سقا كما العفو ندى كالذي اغدقتما دهراً ولم تبخلا

مصر في ٣٠ يونيه سنة ١٩٢٥

***